صور الزهد
فى رثاء الشيخ محمد العثيمين

د. حمود بن محمد بن حمود النقاء
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية – جامعة القصيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

فيعدّ الزهد مفردة من مفردات الشعر العربي ، حيث عبّر الشعراء عنه في مختلف الأغراض الشعرية ، كما عبّروا عن الكرم ، والشجاعة، والصبر ، وغيرها ، وليس هذا فحسب ، بل اتخذه بعض شعراء العصر العباسي موضوعا من أهم موضوعات شعرهم ، خاصة فيما جاء على عبدالله بن المبارك ، ومحمد بن كناسة ، ومحمود الوراق ، وآخرين[١] .

وقد اخترتُ صور الزهد في رثاء الشيخ محمد العثيمين – يرحمه الله – ؛ لأمور عدة ، من أهمهما أن الشيخ من أكثر العلماء الذين رثوا في المملكة العربية السعودية ، حيث أفردت – بعد وفاته مباشرة – صفحات متعدّدة في عدد من الصحف المحلية ؛ لاستيعاب هذا الكم الهائل من الإبداعات الأدبية ، والشعرية منها على وجه الخصوص ، وقد جمع الدكتور ناصر بن مسفر الزهراني عدداً كبيراً مما نُشر ، ومن يفحص القصائد الواردة في هذه المدونة – على سبيل المثال– يجد أن الزهد من المفردات التي لا تكاد تخلو منها قصيدة ، ورغم التعدّد الكبير للمفردات التي رُثي بها الشيخ ، ورغم التباين الفني الكبير بين هذه المراثي ، ورغم تنوّع المذاهب الفنية المتعددة التي جاءت في نصوص رثائه ، إلا أننا نجد أن هذه الصور من التباين بين الشعراء قد أفضت بهم إلى شيء واحد ، هو أن الزهد سمة من أهمّ السمات التي يُرثى بها الشيخ محمد العثيمين ؛ ولذلك افتتح بها بعض الشعراء نصوصهم في

---

(١) ينظر : تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة السادسة عشرة ، ١٤١٦هـ – ٢٠٠٤م ، ص ٣٩٩ .

رثائه ، مثل الشاعرين : إبراهيم الدامغ[١] ، ومحمد العجلان[٢] ، وغيرهما ، وفي المقابل فإننا نجد من الشعراء – أيضاً – من جعل هذه الصـــفة مُختتماً لنصه في رثاء الشيخ ، من مثل الشاعر رافع الشهري[٣] ، والشاعر سعيد المالكي[٤]، والشاعر عبد الرحمن المحيميد[٥] ، وغيرهم .

ويحسن بنا أن نشير – هنا – إلى أن الجزء الأكبر من المراثي التي كتبت في الشيخ محمد العثيمين ، لم تطبع في دواوين مستقلة ، بسبب أن الغالبية العظمى من الشعراء الذين رثوا الشيخ ليس لهم دواوين ، ومن ثم فإن كثيراً من الدراسات في وقتنا الحالي تستهدف الدواوين الشعرية ، وقد تغفل – عن قصد أو غير قصد – المجموعات الشعرية ، التي منها كتاب الدكتور ناصر الزهراني " ابن عثيمين الإمام الزاهد " ، وهو كتاب ضخم جمع فيه صاحبه كثيراً مما كُتب عن الشيخ – نثراً أو شعراً – مما نُشر في دواوين مستقلة لاحقاً ، ومما لم ينشر ، وهو الأكثر ؛ لذلك نرى من الأهمية بمكان استهداف هذه المجموعات بدراسات عمودية أو أفقية، ذات اهتمام موضوعي أو فني .

ومن خلال بحثي في المراجع المتاحة ، لم أعثر على دراسات تتناول هذا الموضوع ، وكل ما وجدته لا يعدو كونه إشارات عابرة إلى شعر الزهد في الإبداع الشعري السعودي[٦] .

---

[١] ينظر : ابن عثيمين الإمام الزاهد ١٣٤٧هـ – ١٤٢١هـ ، جمع وتأليف د. ناصر بن مسفر الزهراني ، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع ، الدمام ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م ، ص ٨٧٠ .

[٢] ينظر : المصدر السابق ، ص ٩٥٨ .

[٣] ينظر : المصدر السابق ، ص ٨١١ .

[٤] ينظر : المصدر السابق ، ص ٨٣٠ .

[٥] ينظر : المصدر السابق ، ص ٨٧٠ .

[٦] ينظر على سبيل المثال :=

وقد قام هذا البحث على مقدمة ، ومدخل ، وأربعة مباحث ، ثم خاتمة ، وأخيراً ثبت بالمصادر والمراجع ، وقد تناول المدخل سيرة الشيخ من حيث الولادة والنشأة ، وأبرز العوامل المؤثرة في شخصيته ، ثم أثره العلمي ، ووفاته ، كما تناول الزهد في حياة الشيخ ، وما يميّز ذلك الزهد ، ودور الشيخ في تعميق هذه الصفة في المجتمع ، ثم خُصص المبحث الأول لانصراف الشيخ عن الدنيا وملذاتها ، كما خُصص المبحث الثاني لإقباله على طلب العلم ، والمبحث الثالث عَرضَ لأوصافه الجسدية ، أما المبحث الرابع فكان للأبيات التي عبّرت عن الزهد دون أن يتصل تعبيرها بأيّة صورة من صور الزهد الواردة في المباحث السابقة .

ختاماً .. أســـأل الله أن أكون قد وفقت فيما تطرقت إليه في هـــذه الدراسة ، فمنه – وحده – التوفيق والتسديد ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الباحث

د. حمود بن محمد بن حمود النقـــاء

قسم اللغة العربية وآدابهـــا

كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية – جامعة القصيم

– الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية ، د. بكري شيخ أمين ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، الطبعة السابعة ، ١٩٩٦م ، ص ٢٥٩ – ٢٦٠ .

– النـــــزعة الإسلامية في الشعر السعودي المعاصر ، د. حسن بن فهد الهويمل ، المهرجان الوطني للتراث والثقافة ، الرياض ، ١٤١٢هـــ – ١٩٩٢م ، ص ٣٣٨ – ٣٤٢ .

صور الزهد في رثاء الشيخ محمد العثيمين

مدخل

أولاً : سيرة الشيخ ابن عثيمين

أ- الولادة والنشأة وأبرز العوامل المؤثِّرة في شخصيته :

ولد الشيخ العلامة محمد بن صالح بن محمد بن عثيمين المقبل الوهيبي التميمي في مدينة عنيزة ، بمنطقة القصيم ، في ٢٧ / ٩ / ١٣٤٧هـ ، وقد كانت ولادته في أسرة اشتهرت بالدين والاستقامة ، حيث تتلمذ على بعض أفراد عائلته ، من مثل جده لأمه الشيخ عبد الرحمن بن سليمان آل دامغ ، فقد قرأ عليه القران الكريم ، وحفظه ، ثم اتجه إلى طلب العلم ، حيث درس الحساب ، وبعض فنون الآداب ، وتعلّم الخط[١] .

ولعل من المناسب – هنا – الإشارة إلى قرب عنيزة من الدرعية – فكلاهما في منطقة نجد – التي تمثل منطلق الدعوة السلفية التي أسسها الإمام محمد بن عبد الوهاب – يرحمه الله – ومن ثم فقد تأثرت بشكل مباشر بهذه الدعوة ، التي تعدّ الزهد في الدنيا والانشغال بالآخرة واحداً من أهم مبادئها .

عُرف الشيخ – رحمه الله – محمد بالذكاء والزكاء ، والهمة العالية في تحصيل العلم ، ومزاحمة ركب العلماء في حلق العلم ، وقد كانت البداية عند ملازمته لشيخه العلامة المفسر عبد الرحمن السعدي ، كما أنه كان يطيل المكوث في المكتبات ، لا سيما مكتبة الشيخ عبد الله المانع – قاضي عنيزة في ذلك الوقت – فقد روى أولاد الشيخ المانع أن الشيخ العثيمين في مقتبل عمره كان يأتي إلى منـزلهم في الصباح الباكر ، وفوق رأسه قفة يحمل فيها عدداً من

---

(١) ينظر : ابن عثيمين الإمام الزاهد ١٣٤٧هـ – ١٤٢١هـ ، ص ٢٧ .

الكتب والأوراق ، فيطرق الباب ،ويستأذن بالدخول ، ثم يصعد إلى المكتبة فيبقى فيها إلى الظهر ، ثم بعد ذلك ينـــزل من المكتبة ويسلم عليهم وينصرف[١].

تتلمذ الشيخ محمد العثيمين على عدد من الشيوخ والعلماء ، ومن أبرزهم : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، والشيخ عبد العزيز بن باز ، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي ، والشيخ محمد المطوّع – رحمهم الله جميعاً – وغيرهم[٢] .

ب– أثره العلمي :

تصدّى الشيخ ابن عثيمين للتدريس مدة زادت على خمسة وأربعين عاماً ، في جامع يعدّ الجامع الأكبر في مدينة عنيزة ، وقد كان الطلاب يتوافدون إليه من شتى مناطق المملكة العربية السعودية ، بل ومن خارجها ، خصوصاً بعد أن ذاع صيت الشيخ ، وعرف في أوساط العلم الشرعي ، وهذا تحديداً بعد عام ١٤٠٦هـــ[٣] ، حيث كثر طلابه ، وتعددت جنسياتهم[٤] ، فالشيخ يمتاز بقدرته على الإفهام ، وهي قدرة مدعومة بقدرة أكبر على الاستنباط ، والتوصيف ، والتحليل .

وبجانب التدريس في المسجد ، عمل الشيخ أستاذاً بكلية الشريعة وأصول الدين ، بفرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم ، وقد كان هذا الفرع مغذيا للمؤسسات الدينية في المملكة بالعلماء ، والدعاة ، والأئمة ، والقضاة ، وربما كان اسم الشيخ هو الاسم الأبرز في هذه الجامعة .

---

[١] ينظر : الجامع لحياة العلامة محمد بن صالح العثيمين – رحمه الله – العلمية والعملية وما قيل فيه من المراثي ، وليد بن أحمد الحسين ، مجلة الحكمة ، ليدز ، بريطانيا ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢هـــ – ٢٠٠٢م ، ص١٠ – ١١ .

[٢] ينظر : ابن عثيمين الإمام الزاهد ١٣٤٧هـــ – ١٤٢١هـــ ، ص ٢٩ – ٣١ .

[٣] ينظر : الجامع لحياة العلامة محمد بن صالح العثيمين – رحمه الله – العلمية والعملية وما قيل فيه من المراثي ، ص ٥٠ .

[٤] ينظر : المرجع السابق ، ص ٥٤ – ٥٧ .

ثم إن تولي الشيخ للخطابة في جامعه المشهور ، ساهم بشكل كبير في إيصال أفكاره وآرائه الشرعية ، ذلك أن خطبه الدينية تعدّ سياقاً مهماً من سياقات اشتغاله في الدعوة .

وقد صنّف الشيخ عدداً كبيراً من المؤلفات العلمية الشرعية ، زاد عدد المطبوع منها على مائة مؤلَّف ، نذكر منها : فتح رب البرية بتلخيص الحموية ، ومصطلح الحديث ، والأصول من علم الأصول ، وعقيدة أهل السنة والجماعة ، والقواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى ، وزاد الداعية إلى الله عز وجل ، وأصول التفسير ، وشرح الواسطية ، ونبذة في العقيدة الإسلامية ، والشرح الممتع على زاد المستقنع ، وحكمة إرسال الرسل ، وشرح أصول الإيمان ، وغيرهـــا[1] ، إضافة إلى مؤلفات سمعية كثيرة في الفقه ، والعقيدة والتفسير ، والنحو ، وغيرها ، وقد زادت مدة هذه التسجيلات عن خمسة آلاف ساعة[2].

ج- وفاته :

أصيب الشيخ في آخر حياته بمرض عضال ، وقد أخبره الأطباء بذلك ، فتلقى الخبر بالصبر والاحتساب ، ولما وصل خبر مرض الشيخ إلى ولاة الأمر في المملكة العربية السعودية ألحوا عليه بالسفر إلى أمريكا لتلقي العلاج ، فوافق بعد جهد كبير في إقناعه ، وقد تكفّل ولاة الأمر بجميع المصاريف والتكاليف ، إلا أن المرض – رغم مدة زمنية قصيرة – قد تفشّى في جميع أجزاء جسمه ، وبدأت حال الشيخ تزداد سوءاً يوماً بعد يوم ، حتى منع الأطباء السلام عليه ومصافحته ، وفي عصر يوم الأربعاء الموافق ١٥ / ١٠ / ١٤٢١هـــ فجعت الأمة الإسلامية جمعاء بوفاة هذا الإمام العلامة ، وقد صلي عليه في المسجد

---

[1] ينظر : المرجع السابق ، ص ١٤٧ – ١٥٣ .

[2] ينظر : ١٤ عاماً مع سماحة العلامة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين ، عبد الكريم بن صالح المقرن ، دار طويق للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢هـــ - ٢٠٠١م ، ص ١٩ .

الحرام بمكة المكرمة ، بعد صلاة العصر من يوم الخميس الموافق ١٦ / ١٠ / ١٤٢١هـ ، ودفن بمقبرة العدل ، بجوار قبر شيخه العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز – رحمهما الله –[١] .

ثانياً : الزهد في حياة الشيخ ابن عثيمين

أ- الزهد من أبرز صفات الشيخ :

تحلّى الشيخ ابن عثيمين بعدد من الصفات ، من أهمها : الصدق ، والإخلاص ، والإعراض عن الدنيا ، والحلم ، والحزم في الأمور التي تتطلب ذلك ، والصبر والتجلّد سواء في طلبه للعلم ، أو تعليمه ، أو دعوته ، وهذه الصفات تتجلّى في حياته كلها ، وخصوصاً تلك المواقف التي يشاهدها الناس ، ويحفظونها في الصدور والسطور ، وربما كانت أبرز هذه المواقف تحدث حين يخرج من بيته إلى مسجده ، فأثناء هذا المسير يمرّ الشيخ بثلاثة شوارع ماشياً لا يرضى أن يقلّه أحد في سيارته ، وفي هذه الشوارع نراه يتفقد أصحاب المحلات التجارية ، فيسلّم عليهم ، ويسأل عن حالهم ، ويفتي عدداً من السائلين ، كما كان يصحّح كثيراً من الدروس المدونة في المذكرات ، ويعلق عليها أثناء سيره ، ولعل من أغرب المواقف وأطرفها في هذا المسير ، أنه حين عاد – ذات مرة – من مسجده قاصداً منـــزله ، فلما اقترب من المنـــزل ، وإذا بحشد كبير من الناس ، وطوق من رجال الأمن والشرطة ، يمنعون أي إنسان أن يقترب من المنـــزل ؛ لأن الملك فهد بن عبد العزيز يقوم بزيارة للشيخ في داره ، فأراد الشيخ اختراق صفوف الجند ، وإذا بهم يمنعونه مبيّنين

---

[١] ينظر : الجامع لحياة العلامة محمد بن صالح العثيمين – رحمه الله – العلمية والعملية وما قيل فيه من المراثي ، ص ١٧٣ – ١٧٩ .

له السبب ، فقال لهم : أنا الشيخ ابن عثيمين ، وأكّد لهم ذلك ، فوافقوا على مروره ، ودخوله إلى المنــزل ، فإذا بالملك فهد ينتظره في المجلس[١] .

لقد كان الزهد من أبرز صفات الشيخ فقد كان بعيداً عن التكلّف ، وكانت البساطة تطبع حياته كلها ، فعاش عيشة تقوم على استدبار زخارف الدنيا وبهرجتها ، وتتأسس على الورع ، حتى إن ملابسه التي كان يرتديها من ثوب وعباءة وشماغ ، لا تساوي إلا مبلغاً زهيداً[٢] ، وله مواقف كثيرة تدل على بساطته ، وتواضعه ، منها : أنه ركب مع أحد محبيه سيارة قديمة كثيرة الأعطال ، فتوقفت أثناء الطريق ، فقال الشيخ للسائق : ابق مكانك ، وسأنزل أنا لأدفع السيارة ، فنــزل الشيخ ودفع السيارة بنفسه ، حتى تحركت ، ومن المواقف – أيضاً – أنه في أثناء درسه في المسجد الذي كان بجوار بيته ذهب أحد الطلاب إلى دورة المياه ، فوجد أنبوبة مكسورة ، والماء يتدفق منها ، فأخبر الشيخ بذلك أثناء الدرس ، فما كان من الشيخ إلا أن قطع الدرس ، وذهب إلى منــزله ، وأحضر عدة لإصلاح هذا العطل ، مشاركاً طلابه في هذا العمل ، وأختم بموقف أخير – درءاً للإطالة – يدل على تواضعه ورغبته في الاعتماد على النفس ، فقد ذكر الأستاذ كمال أحمد صابر أن مجموعة من الكتب من قطر والإمارات العربية المتحدة ، أرسلت إلى منــزل الشيخ ، وأن الشيخ أخذ يحملها بنفسه رغم كثرتها وثقلها ، وأنه (أعني كمال صابر) طلب من الشيخ أن يكفيه مؤونة حملها ، إلا أن الشيخ أبى إلا أن يساعده في ذلك ، وهذه المواقف ، وغيرها كثير ، تدل على بساطة الشيخ وتواضعه[٣].

---

(١) ينظر : الجامع لحياة العلامة محمد بن صالح العثيمين – رحمه الله – العلمية والعملية وما قيل فيه من المراثي ، ص ١٤ – ١٥ .

(٢) ينظر : ابن عثيمين الإمام الزاهد ١٣٤٧هـ – ١٤٢١هـ ، ص ١٦٣ .

(٣) ينظر : صفحة مشرقة من حياة الإمام محمد بن صالح العثيمين ، حمود بن عبد الله المطر ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م ، ص ٤٧ .

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن هذه الصفات – وخاصة الزهد – قد تكون مشتركة بين كثير من العلماء وطلبة العلم في تلك المرحلة ، فالزهد كان طبيعة اجتماعية ، ذلك أن المجتمع كان محافظاً ، وبدائياً (أعني في بدايات الطفرة التنموية) ، ولذا فإن الغالبية العظمى من أبناء ذلك المجتمع ، تشعرك وكأنك أمام طبقة اجتماعية واحدة ، فالطعام متقارب ، واللباس متشابه ، ووسائل التنقّل تكاد تكون موحّدة .

ب– ما يميّز زهد الشيخ :

إن ما يميز الزهد عند الشيخ ابن عثيمين أنه اتصف بها اختياراً لا اضطراراً ، فهو قد توفّرت لديه من عوامل الحياة الرغيدة ما لم تتوفر لغيره ، فهو معدود من الوجهاء الاجتماعيين ، فـــأســـرته من الأسرة التي لها حضورها في عنيزة ، وهو من علمائها الشرعيين ، الذين يحظون بمنـــزلة رفيعة عند مختلف طبقات المجتمع ، بدءاً بحكام هذه البلاد ، وانتهاء بأفراد الناس ، وقد سبق أن أشرنا إلى زيارة الملك فهد له في منـــزله ، وتكفّل الدولة بمصاريف علاجه في الداخل والخارج ، كما أن عمله في التدريس الجامعي ، وعضويته في هيئة كبار العلماء ، وحضوره البارز في وسائل الإعلام ، وتحديداً في إذاعة القرآن الكريم ، كلها أمور تقع ضمن دائرة الوجاهة ، إضافة إلى كونه خطيباً لأكبر جامع في عنيزة ، وهو جامع مقصود لذاته – كما أسلفنا – .

فكل الأمور السابقة ، وربما بعضها ، تكفي لأن تجعل الإنسان في مستوى متقدّم من العيش الرغيد ، والحياة المرفهة ، ومع ذلك فإن الشيخ محمد لم يتأثر بها ، بل استطاع أن يتحكّم بكل تلك العوامل ، ولم يسمح لها أن تتحكّم فيه .

ج– تعميق الشيخ للزهد في المجتمع :

إذا كان الزهد صفة ملازمة للشيخ ابن عثيمين ، فإن هذه الصفة لم تقف عند حدود ذات الشيخ ، بل سعى إلى تعميقها داخل محيطه الأسري المتمثّل في

عائلته أولاً ، فهو لم يخرج من بيته القديم إلا بعد محاولات كثيرة ، وبعد ضغوط من أبنائه ، ثم هو يحاول نشر هذه القيمة ، والدعوة إليها ، وترسيخها لدى المجتمع من خلال خطبه ومواعظه ، من ذلك قوله في إحدى خطبه : " إن كثيراً من الناس قد انهمك في الدنيا حتى صارت أكبر همه ومبلغ علمه يجمع المال لا يبالي من أين جمعه ويسرف في إنفاقه على وجه غير مشروع ... إن اتجاهات الناس وأغراضهم مختلفة فمنهم من يريد المال ويسعى لتحصيله ولو بالطرق المحرمة ومنهم من يريد الجاه والرئاسة والعلو على الخلق ... أيها الناس إنه لم يُطلب منكم أن تتركوا الدنيا بتاتاً فإن هذا شيء لا يمكنكم وإنما يُطلب منكم أن تعتدلوا في طلبها فتطلبوهـــــــا باتزان واعتدال على وجه مباح ... "[1] .

لقد كان الزهد المسوّغ الأول لحصول الشيخ على جائزة الملك فيصل لخدمة الإسلام ، حيث كانت الحيثية الأولى من حيثيات فوز الشيخ بالجائزة " تحليه بأخلاق العلماء الفاضلة التي من أبرزها الورع والزهد ... "[2] ، فالزهد كان في المنـــزلة الأولى لحصول الشيخ على تلك الجائزة ، ومع أن هذه الجائزة إنما هي لخدمة الإسلام ، والزهد – كما هو معلوم – صفة لازمة ، وليست متعدية ، إي ليست كبقية الحيثيات الأخرى ، التي تمثّلت في " انتفاع الكثيرين بعلمه ... ، وإلقاؤه المحاضرات العامة النافعة ... ، ومشاركته المفيدة في مؤتمرات إسلامية كبيرة ، واتباعه أسلوباً متميزاً في الدعوة إلى الله ... "[3] ، إلا أن نص الجائزة بدأ بالعامل اللازم ، وهو الزهد ، وهذا يُشعر بأن الزهد أشبه

---

(١) الضياء اللامع من الخطب الجوامع ، محمد بن صالح بن عثيمين ، مكتبة السوادي للتوزيع ، جدة ، الطبعة التاسعة ، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م ، ص ٢٨٦ .

(٢) ينظر : ابن عثيمين الإمام الزاهد ١٣٤٧هـ – ١٤٢١هـ ، ص ٨٤ .

(٣) ينظر : المصدر السابق ، ص ٨٤ – ٨٥ .

بالمعادل الموضوعي للشيخ محمد العثيمين ، فكأن الزهد ظل له ، يتسع باتساعه ، ويضيق بضيقه[1] .

إن الشيخ ابن عثيمين كان متوازناً في طرح قضية الزهد ، فهو لم يكن من الدعاة إلى التقشّف الشديد ، والانقطاع التام عن الدنيا ، وفي المقابل لم يكن من الذين يخوضون في ملذات الدنيا ، ويقدمونها على الآخرة .

إن كل ما سبق جعل صفة الزهد من أهم صفات الشيخ محمد العثيمين ، فهي الصفة الأم لبقية الصفات التي تحلّى بها الشيخ ، ولذلك كانت دون غيرها بؤرة لتوليد الحكايات والمواقف عن زهد العلماء في العصر الحديث ، كما كانت هي الصفة البارزة والمسيطرة على جميع الأدباء الذين كتبوا عن الشيخ شعراً أو نثراً ، بل إن الشاعر والأديب الدكتور ناصر بن مسفر الزهراني ، حين ألف كتابه عن ابن عثيمين – الذي جمع فيه كل ما وقعت عليه عينه من نصوص نثرية أو شعرية ، تناولت رثاء الشيخ – أسمى ذلك الكتاب " ابن عثيمين الإمام الزاهد " ، ومعلوم أن العنوان إنما هو تكثيف للمحتوى ، فلو افترضنا أن القصائد التي كتبت في الشيخ العثيمين هي بمثابة النص ، فإن هذا العنوان جاء لتكثيف هذا النص ، ومن ثم فإن المؤلف قد جعل الزهد في بنية العنوان .

ومن هذا المنطلق فقد اخترنا الزهد ليكون سياقاً لبحثنا ، ولنرى كيف استطاع الشعراء أن يجلّوا لنا هذه الصفة ، وهل استطاعوا أن يبتكروا لنا أساليب جديدة في رصد هذه الظاهرة لدى الشيخ – يرحمه الله – ، أم أنهم وقفوا عند حدود التقليد .

---

[1] ربما يقول قائل إن الزاهد يقدم صورة حسنة للعالم ، ومن ثم فإنه يؤثر في غيره ، وهذا لا خلاف عليه ، إلا أن تأثيره من خلال هذه السمة ، لن يكون كتأثيره من خلال السمات المتعدية الأخرى ، التي جاءت في نص الجائزة .

المبحث الأول :
الانصراف عن الدنيا وملذاتها

إن من يطالع الأشعار التي قيل في رثاء الشيخ ابن عثيمين – يرحمه الله – يلاحظ للوهلة الأولى أنها تركّز – بشكل كبير – على استدباره ملذات الدنيا ونعيمها الزائل ، وتجعل هذه السمة بمثابة الفكرة الرئيسة للنص ، بل إن هناك قصائد جعلتها محور الرثـــاء ، ومن ثم فقد تتبعتها عند الشيخ ؛ لترصد ملامحها ، وأثرها في الشيخ نفسه ، وفي الناس من حوله ، وتحاول مقاربة أبعادها المادية والمعنوية .

لقد تناول الشعراء هذه السمة بأساليب متنوعة ، فمنهم من صوّر تعلق الشيخ بالآخرة ، ورغبته في النعيم الأخروي ، ومنهم من صور تزيّن الدنيا بملذاتها للشيخ ، محاولة إغراءه ، لكن دون جدوى ، ومنهم من عبّر عن نظرة الشيخ إلى هذه الدنيا ، وكيف أنها فانية لا تستحق الاهتمام ، فضلاً عن التهالك خلفها ، إلى غير ذلك مما سوف يأتي في طيات هذه الدراسة .

ويعدّ النفي سياقاً من أهمّ سياقات إثبات الضدّ في تعرّض الشعراء لهذه الصفة ، ومن ذلك ما نجده عند الشاعر رافع بن علي الشهري[1] :

تـــا الله مـــا كـــان يرجـــو غـــير مغفـــرة ... ولم يكـــن يرتجـــي شـــيئاً مـــن النـــشب
وكـــم أتـــت هـــذه الـــدنيا لتتبعـــه ... لكنهـــا لم تنـــل شـــيئاً مـــن الأرب
أتتـــه منقـــادة تبغـــي مودتـــه ... فـــصدّ عنهـــا بوجـــه عـــابس غـــضب
فكـــان حقـــاً تقيـــاً زاهـــداً ورعـــاً ... وقـــد رأينـــاه فينـــا خـــير محتـــسب

فالشاعر في البيت الأول ينفي رجاء الشيخ في غير الآخرة " ما كان يرجو " ، ثم هو في البيت الثاني ينفي بعد الإثبات ، حيث أثبت تعرّض الدنيا للشيخ ،

---

(١) ابن عثيمين الإمام الزاهد ١٣٤٧هـ – ١٤٢١هـ ، ص ٨١١ .

واقترابها منه ، ومحاولتها الإحاطة به ، ثم نفى عنه تطلعه إليها ، أو طمعه فيها ، وبذلك اكتسب النفي بعد الإثبات قيمة دلالية كبيرة .

وقد حرص الشاعر في هذا المقتطف – لتعميق الدلالة – على تصوير البعد الجسدي والنفسي للشيخ حين صدّ عن الدنيا وجعلها خلف ظهره ، وهذا واضح في آخرة البيت الثالث حيث يقول " صدّ عنها بوجه عابس غضب " ، فالوجه العابس يمثّل البعد الجسدي ، والوجه الغاضب يمثّل البعد النفسي .

ولم يكتفِ الشاعر بما سبق ، بل زاد – إمعاناً في تعميق الدلالة أكثر – حين التفت إلى البعد الوظيفي ، وهو ما تجلّى في البيت الأخير ، حيث التقوى ، والزهد ، والورع ، والاحتساب " فكان حقاً تقياً زاهداً ورعاً ... خيرَ محتسبِ " .

وقد يكون ترفّع ابن عثيمين عن الدنيا باعثاً على حبّه وإجلاله ، يقول الشاعر زكي الحريول[1] :

طـــود أشـــمّ وكـــل النـــاس تقـــصده ... بـــالله كيـــف يـــوارى ذلـــك الجبـــل ؟
سمـــت يـــداه عـــن الـــدنيا وصـــاح لهـــا ... مـــا كـــل صـــيد بحبـــل المكـــر يحتبـــل
يـــا لائمـــي في دمـــوع الحـــزن أذرفهـــا ... مـــن لجّ في الحـــب لا يجـــدي بـــه العـــذل

فالحـــريول يعلّل – فيما سبق – حبّه للشيخ ، وحزنه لفقده ، في انصرافه (أعني الشيخ) عن الدنيا ، فهو يصفه بالطود والجبل ، انطلاقاً من العلو والارتفاع ، ثم إنه عبّر بسموّ اليد لأن السمو بمعنى الرفعة ، وهو تعبير عن تجاوز الأرض والدنيا وملذاتها ، إلى السماء والدار الآخرة .

إن الانصراف عن الدنيا يستلزم صفات من أهمها الورع ، والتواضع ، وهو ما أشار إليه الشاعر سامي بن محمد البكر حين قال[2] :

---

(١) المصدر السابق ، ص ٨١٢ – ٨١٣

(٢) المصدر السابق ، ص ٨١٨ .

كـل العلـوم تـدور حـول إمامنـا ... فكأنـه فـوج مـن العلمـاء
مـع كـل ذا متواضـع متـورّع ... متوشـحٌ بالزهـد خـير رداء
لم يبتـغ الـدنيا ولم يـسعَ لهـا ... لكـن أتتـه بذلـة ورجـاء

فالمقطع السابق يتضمن بيان أثر الشيخ فيمن حوله ، وكيف أن من يعمرون مجلسه قد أخذوا عنه أهم صفاته الروحية ، والمتمثّلة في التواضع ، والورع ، والزهد ..

ولم يكتف الشاعر بذلك ، وإنما أخذ ينفي عن الشيخ ابتغاء الدنيا والسعي لها ، مـع إثبات صفة ذلة الدنيا وصغارها بين يديه ، ورجائها أن تستولي عليه ، وتجعلها في دائرة أتباعها ومريديها ، فالدنيا في نظر الشاعر محكومة به ، وليست حاكمة عليه ، ولا متحكّمة به .

ويؤكد الشاعر سعد بن عطية الغامـدي حِيَل الدنيا ، وتزيّنها للشيخ ؛ بغية اصطياده ، لينطلق من هذا التأكيد إلى تأكيد آخر أهمّ ، هو تعفّف الشيخ ، وامتناعه عن مجاراتها[1] :

ويزهـد في هـذا الـتراب وإن زهـا ... وأجلـب يغـري الخـانعين ويخـدع
ومـا الزهـد في الـدنيا بـضاعة مملق ... تجافتـه حتـى لا يـرى أيـن يهجـع
ولكنـه شـأن الـذي أقبلـت لـه ... تـزيّن ألوانـاً وتدنـو وتخـضع
فأسـقطها مـن كفـه وابتغـى الـتي ... هي المنـزل الأبقى ، هـي الخير أجمع

فالشاعر اعتمد في هذا المقطع على الفعل المضارع الذي يعطي معنى الاستمرارية والدوام ، وقد صنع من هذا الفعل مواجهة بين استمرارية الدنيا

---

(١) المصدر السابق ، ص ٨٢٣ .

في التعرض للشيخ ، واستمراريته في التصدّي لعروضها واستعراضاتها ، فالشيخ " يزهد ... " والدنيا تجلب عليه " أجلب ... " .

ثم عبّر الغامدي عن ابتعاد الشيخ عن الدنيا بالفعل الماضي " أسقطها ... وابتغى ... " ؛ ليأخذ من هذا الفعل معنى التأكيد ، والثبات القيمي الذي لا يتزعزع رغم استمرارية الدنيا في مواجهته .

وقد يخلع الشاعر على المرثي جملة من الصفات الكريمة ، كما الشاعر صالح بن حمد المالك إذ يقول[1] :

أكـــرم بـــه بـــرّاً وفيّـــاً زاهـــداً ... ورعـــاً تقيـــّاً صادقـــاً وأمينـــا
لا شـــيء يعنيـــه ســـوى إيمانـــه ... بـــالله ربـــاً بالعقيـــدة دينـــا
أمـــا الـدنـــا فحقـــيرة في رأيـــه ... لا تـــستحق تـــشوقاً وحنينـــا

فصالح المالك يضع الزهد بين جملة من الصفات التي كان الشيخ يتحلّى بهـــا ، كالوفاء ، والصدق ، والأمانة ، وغيرها ، لكنه يمنح صفة الزهد الأهمية الكبيرة ، وذلك من خلال الإشارة إلى صفات أخرى متصلة بالزهد كالورع ، والتقوى ، ومن خلال تقديم صورة الدنيا عنده في الصورة المستحقرة المستصغرة ، التي لا ينبغي السير وراءها ، ولا الركض في مضمارها ، وهذا ما تجلّى في قوله " الدنا فحقيرة ... لا تستحقّ ..." ، ومن ثم فقد كان الإعراض والانصراف من الشيخ .

وإذا كان صالح المالك يمنح صفة الزهد الأهمية الكبرى ، فإن صالح بن علي العمري يجعل هذه الصفة في مركـــز الصدارة بين صفات الشيخ ، فيقول[2] :

أأبكيـك شـيخ الزهـد والعلـم والتقـى ... وقـــد حـــق أن أبكـــي فـــؤاداً يـــصدّع

---

[1] المصدر السابق ، ص ٨٣٥ .

[2] المصدر السابق ، ص ٨٤٢ – ٨٤٣ .

ركبت مطايا العزم تقوى وهمة ... وأنت لفعل الخير أدنى وأسرع
وأسديت ثوب الزهد ثوباً مسربلاً ... وذلك ثوب ليس والله يخلع
ومن ذاق طعم الأنس بالله حقبة ... فليس له في عيشة الزيف مطمع

فنحن نلحظ أن الشاعر في المقتطف السابق قد كرر الشاعر كلمة الزهد مرتين ، ففي البيت الأول نجد " شيخ الزهد " ، وفي البيت الثالث نجد " ثوب الزهد " ، وفوق هذا التكرار اللفظي كان هناك التكرار المعنوي ، وهو إعادة نسج معنى الزهد بلفظ آخر ، حيث نجد " التقى " ، ونجد كذلك " عيشة الزيف " ، وهذا التنوّع بين الإفراد والتركيب ، أثرى الدلالة ، وأعطى أبعاداً متجدّدة للزهد ، وهو أمر يعبّر – أيضاً – عن أهمية هذه الصفة في نظر الشاعر، فهو يضعها في الصف الأول ، إذا ما قسمنا صفات الراحل عدداً من الأقسام .

ويأتي طالب بن عبد الله آل طالب ؛ ليحشد – كسابقيه – جملة من الصفات التي ينتمي إليها الشيخ ، وتنتمي إليه ، ويجعل الزهد مفتتحاً لتلك الأوصاف ، ومنطلقاً لإعادة معانيه بصيغ متعددة ، فيقول[1] :

زاهد والحلم من أوصافه ... وذكي حين تقسو المشكلات
ترك الدنيا لمن يسعى لها ... وحمى كفيه عن نيل الصلات
شيخنا والموت يطوي صفحة ... من حكاياكم وتبقى الذكريات
كيف أنسى صوتك الحاني وقد ... حمل الفتوى إلينا والعظات

فالشاعر حمّل هذا المقطع عدداً من الصفات ، لكنه رغم ذلك لم يكرّر إلا صفة واحدة ، وهي الزهد ، حيث افتتح بها عرض صفات الشيخ في هذا المقطع ، ثم أعاد المعنى في البيت الثاني حين قال " ترك الدنيا لمن يسعى لها " ، كما أن جملة " وحَمَى كفّيه ... " في الشطر الثاني يمكن أن تشفّ عن أنّ

(١) المصدر السابق ، ص ٨٤٥ .

الدنيا قد اقتربت من الشيخ إلى حدّ تمكّنها من ملامسة يديه ، وأن الشيخ لم يعد قادراً إلا على حمـــاية يديه من أن يصبهما شيء منها بغير وجه حقّ .

وربما اعتمد الشاعر على البناء السردي ؛ ليعبّر عن إقبال الدنيا على الشيخ ، وبالمقابل تعاليه عليها وعلى زخارفها ، وهذا ما برز في أبيات عبد الرحمن بن صالح العشماوي الآتية[1] :

مـــا لقينـــاه علـــى درب الهـــوى ... بـــل علـــى درب الهـــداة المهتـــدين
لكـــأني أبـــصر الدنيـــا الـــتي ... بـــذلت إغراءهـــا للناظـــرين
أقبلـــت تعـــرض مـــن فتنتهـــا ... صـــوراً تـــسبي عقـــول الغـــافلين
رقـــصت مـــن حولـــه لكنهـــا ... لم تجـــد إلا ســـوّ الزاهـــدين
أرســـل الـــشيخ إليهـــا نظـــرة ... مـــن عـــزوف الـــراكعين الـــساجدين
فمـــضت خائبـــة خاســـرة ... تتحاشـــى نظـــرات الـــشامتين

لقد استطاع الشاعر عبدالرحمن العشماوي أن يعبّر عن هذا المعنى من خـــلال البنية السردية ، حيث عبّر بعناصرها عن إقبال الدنيا بملذاتها على الشيخ ، فهي تعرض فتنتها ، وترقص بين يديـــه للإغـــواء والجذب ، ولذلك جاءت الأفعال المضارعة معبّرة عن الحدث المستمر والمتجدّد ، مثل " تعرض " ، و " تسبـــي " ، و " تجد " ، وغيرها ، ثم إن الشاعر ينـهي المشهدَ بالإشـــارة إلى الخسارة الكبيرة التي منيت بها الدنيا ، أمام ثبات الشيخ ، وتعاليه على وجهها البرّاق الزائف .

ومن الشعراء من يعمد إلى التقابل ليُجلّي زهد الشيخ ، كما فعل عبد الله بن محمد الطيار ، حيث يقول[2] :

كـــم قـــد ســـموت عـــن الحيـــاة تنـــزهاً ... فكـــسبت طيـــب العـــيش بعـــد ممـــات
إنـــي أعـــزي فيـــك منـــبرك الـــذي ... يبكـــي الحـــديث وصـــادق الـــدعوات

---

[1] المصدر السابق ، ص ٨٦٤ .

[2] المصدر السابق ، ص ٩٠٧ – ٩٠٨ .

يبكيـــك جامعـــك الـــذي أمطرتـــه علمـــاً وفـــضلاً مـــن كـــريم هبـــات

فالشاعر – هنا – يقابل بين تسامي الشيخ عن عطايا الدنيا " كم قد سموت عن الحياة " ، وانشغاله بالعطاء لآخرته " فكسبت طيب العيش بعد ممات " ، وهو عطاء من خلال العلم والفضل " أمطرته علماً وفضلاً " ، حتى أثر هذا في الأشياء / الجوامد التي تحيط بذاته (المنبر ، والجامع) ، وجعل لها في نفس الشاعر ذاكرة خاصة ، ولذا فهو يعزي المنبر ، ويبكي لبكاء الجامع .

ولا شك أن الزاهد يحاول التغلّب على أهواء نفسه ، وصراعاتها ، ومطامعها ، حين تترصّده الدنيا بملذاتها ، يقول فيصل بن ناصر الشدوخي[1] :

لمـــا زهـــدت عـــن الـــدنيا وزخرفهـــا رأيـــت فيـــك التقـــى قـــد صـــار عنوانـــا

أحبـــك الله فاختـــار البـــلاء بكـــم فحـــزت بالـــصبر عنـــد الله قربانـــا

إن الزهد في البيتين السابقين قد أخـــذ معنى جديداً ، وهو الصعوبة التي يجدها الزاهد ، خاصة إذا تجلّت له الدنيا بكامل مفاتنها ، حيث المال ، والوجاهة ، والأضواء وكثرة الأتباع ، وغيرها .

وقد زاد الشاعر – هنا – فجعل التقى بعد الزهد وليس معادلاً موضوعياً له ، كما وجدنا عند شعراء آخرين في مقاطع سابقة ، وهذا يعزز القول بصعوبة الزهد، وبقيمته المعنوية .

إن من يرى زهد الشيخ محمد العثيمين ، ربما خُيّل إليه أنه زهـــدٌ في أمور صغيرة ، أو تافهة ، وليس زهداً في دنيا قد تهالك الكثير خلفها ، يقول الشاعر عبد الله محمد باشراحيل[2] :

---

[1] المصدر السابق ، ص ٩٣٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩١٥ .

(١) المصدر السابق ، ص ٩٢٣ .

ونـــراك تزهـــد في الحيـــاة كأنهـــا طيـــف يمـــرّ وعـــابر يـــستلهم
لازال علمـــك في المـــدى أصـــداؤه بـــين المهامـــه والربـــى تترنـــم
فقـــدُ الرجـــال العـــاملين لربهـــم فقـــدُ الـــضياء إذا تـــوارت أنجـــم

يعبر الشاعر باشراحيل في هذا المقطع عن المستوى العالي من زهد الشيخ ، وكيف أنّ المتأمّل يظنّ أنه زهد بشيء عابر ، وليس بدنيا يريد الإنسان – بطبيعته – أن يصيب منها ويصيبها ، وقد ربط باشراحيل – هنا – الزهد بالعلم ، وانتشاره ، حيث قال " ونراك تزهد في الحياة ... " ، ثم " لازال علمك في المدى ... " ، وفي ذلك إشارة منه إلى أثر الزهد في تكوّن مصداقية الشيخ ، الأمر الذي أفضى إلى انتشار أقواله وفتاويه بين الناس .

وإذا كانت الأشعار السابقة قد تناولت الزهد في المال ، والأضواء ، ونحوهما ، فإن هناك من وقف عند زهد الشيخ في المناصب ، وانصرافه عنها ، فهذا الشاعر فريد بن عبد العزيز الزامل يقول[1] :

ترفعـت عـن دنيـا المظاهـر زاهـداً وقـد كنـت في وجـه المناصـب تبـسر
تناديـك هـذا المجـد والرفعـة الـتي إليهـا جمـوع النـاس تـسعى فتقـصر
فتعـرض عنهـا لا تريـد مـن الدنـا نـصيباً فحـظ الـدين أجـدى وأجـدر

لقد فتحت كلمة المناصب – في هذا المقطع – مساراً جديداً في التعبير عن زهد الشيخ ، فهو زهد لا يقتصر على المال ، والمنعمات الدنيوية – بصفة عامة – دون تحديد وجه من وجوهها الكثيرة ، وإنما يتجاوزها إلى المنصب والوجاهة الإدارية ، وما من شك في أن المنصب غير المال ، وقد يجد الزاهد مسوغاً – دينياً واجتماعياً – لقبول المنصب أكثر من المال ، ولذلك عـدّ فريد الزامل إشاحة الشيخ بوجهه عنها تأكيداً لزهده في الدنيا ، بل في وجه من وجوهها المسوّغة .

إن الزهد وإن كان ثابتاً قاراً في شخصية وحياة الشيخ ابن عثيمين ، إلا أنه زهد متوازن ، ينضبط بضوابط الشريعة الإسلامية ، لذا فإننا نجد هذا المعنى عند محمد بن ناصر آل زيد ، حيث يقول[1] :

زهـدت في زهـرة الـدنيا وزخرفهـا توسّـط بـين تقتـير وإسـراف
ولم تـر المـال شـيئاً إذ تجـود بـه قـسمته بـين محتـاج وأضيـاف

يحاول الشاعر – فيما سبق – منح الزهد في شخصية الشيخ صورة متوازنة ، فزهـده لم يكن تقشّفـاً بائساً ، وإنما كان توسطاً ، أسوة بالمصطفى – صلى الله عليه وسلم – ، فهو زهـد نابع من الدين الإسلامي وتعاليمه السمحة ، وليس من رؤى بشرية ، تتأثر بانفعالات نفسية ، أو رؤى غير شرعية .

وبناء على ما سبق فإننا نجد الإشارة في البيت الثاني إلى عطاء الشيخ وكرمه، ففي هذا البيت نرى محاولة الشاعر لإثبات امتلاك الشيخ للمال الذي هو عصب الحياة ، لكنه لم ينله بطرق رخيصة ، ثم لم يكنـزه ، وإنما أنفقه ، وبذلك تتشكل الصورة الكبيرة التي رسمها هذا الشاعر لزهد الشيخ ، فهو زهد لا يؤدي إلى الكفاف والانقطاع والبؤس ، كما أن التفاعل مع الدنيا – وإن كان متزناً – لم يؤد بالشيخ إلى البخل ، فكأنه استدبر العطايا واستقبل العطاء ، فهو فاعل في الحالين (الزهد والكرم) ، وليس مفعولا به ، أي متحكّم في الدنيا ، وليس محكوماً بها ، أو من قِبَلِها .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٩٦٦ .

المبحث الثاني :
الإقبال على العلم والانقطاع إليه

من المعلوم أن الشيخ محمد العثيمين فد أفنى عمره في العلم ، ما بين الطلب ، والتدريس ، ولقد كان يحث العامة – فضلاً عن طلابه – على استثمار أوقاتهم في تحصيل العلم ، والسعي في ركابه ، لينالوا بذلك الرفعة والثواب من الواحد الأحد ، فقد جاء في إحدى خطبه قوله " أيها الناس تعلموا العلم للعلم ، لتنالوا بركته وتجنوا ثمرته تعلموا العلم للعمل لتعملوا به لا لتجادلوا به وتماروا به ... لا تطلبوا العلم للمال فإن العلم أشرف من أن يكون وسيلة إلى المال ، وإن المال أحــق أن يكون وسيلة للعلم لأن المال يفنى والعلم يبقى "[1] .

ولاشك أن الإقبال على العلم ، والانقطاع إليه ، وصرف الأوقات في تحصيله ، مما يتأثر بالزهد ويؤثر فيه ، خاصة إذا كان طالب العلم ممن تعرّض لامتحان حقيقي في هذا السياق كما حصل مع الشيخ العثيمين .

ولقد أولى الشعراء هذه السمة عناية خاصة في رثائهم للشيخ – يرحمه الله – من ذلك قول الشاعر إبراهيم الكلثم[2] :

مــات الــذي كــسب المـيراث مــن سـلف ... وورّث العلـــم أجيـــالاً وطلابـــاً
فــودعي يــا ريــاض العلــم ذا أدب ... سمحــاً بــشوشاً حلـيم القلـب أوابــا
وودعـــي مـــن دعـــا لله مجتهـــداً ... شيخاً كـبيراً على التعليم قـد شابـا

لقد اشتمل هذا المقطع على عدد من الصفات ، التي عُرف بها الشيخ ، ولكن الشاعر منح إحدى الصفات أهمية أكبر ، ألا وهي صفة العلم ، والتعلُّم ، والتعليم ، بل إنه ربط هذه الصفة بالنبوّة من خلال قوله " كسب الميراث ... " .

---

(١) الضياء اللامع من الخطب الجوامع ، ص ٣١٨ – ٣١٩ .

(٢) ابن عثيمين الإمام الزاهد ١٣٤٧هـ – ١٤٢١هـ ، ص ٧٧٣ .

ثم إننا نجد – في البيت الأخير – ربطاً بين للشيب بالعلم ؛ بغية إعطاء العلم قيمة كبيرة في سيرورته الزمنية ، فهو ليس علماً فحسب ، ولكنه علم طويل ، في زمن مديد ، وعلى امتداد مراحل متعددة .

إن العلم بمثابة الضـــوء الذي يبدّد سواد الجهل ، ومن ثم فإننا نستطيع القــول إن العلم والنور وجهان لعملة واحدة ، وهذا ما عبّر عنه الشاعر سعود بن سليمان اليوسف حين قال[1] :

فيــا ناصــر الــدين الحنيــف وأهلــه ... أواراك يــا شمــساً مـن الـشرف القبــر؟
نهـــارك علـــم والليـــالي عبـــادة ... وذكـــر وقـــرآن إذا ضـــمّك الفجـــر
فللـــه ذاك العمـــر تفنيـــه مفتيـــاً ... وتفنيـــك أسقـــام ومـــا فـــني الأجـــر

ففي الأبيات السابقة يتوازى الزمن مع الصفة ، فيستقلّ النهار – بكلّ دلالته – بصفة العلم ، ولهذا الاتصال دلالة مهمّة ، هي الإبصار والتبصير ، ولذلك جلاّه الشاعر بوصفه شمساً كما في الشطر الثاني من البيت الأول .

أمضى الشيخ – كما أسلفنا – عمره في رحاب العلم ، وقد كان هذا الأمر ملهماً لعدد من الشعراء ، ومن بينهم الشاعر عبد الرحمن بن عبد الله أبو دجين ، الذي رثى ابن عثيمين بقصيدة ، جاء فيها[2] :

سـبعون عامـاً قـد مـضت مـن عمـره ... أفتـــى وأرشـــد تائهـــاً وجهـــولا
يفـــتي وينـــصح أمـــة ملهوفـــة ... ويريهـــم الحـــق المـــبين سبيـــلا
يـــا أمـــة الإســـلام خطبـــك فـــادح ... ومـــروّع تـــرك الفـــؤاد عليـــلا

فالشاعر قد اعتمد على مجموعة من الأفعال ؛ ليؤكد اتصال الشيخ بالعلم والتعليم ، وهذا يتمثّل في قوله " أفتى وأرشد " ، و " يفتي وينصح " ، و "

---

(١) المصدر السابق ، ص ٨٢٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٦٧ – ٨٦٨ .

يريهم الحقّ المبين " ، فكل ما سبق متصل بالعلم والتعلّم والتعليم ، ولأن الشيخ كذلك ، كان خطب الأمة في رحيله فادحاً ومروّعاً .

ومما يلاحظ على الأبيات السابقة أن الشاعر نوّع في استخدام الفعل فجاء بالماضي في أفتى ، وبالمضارع في يفتي ، ليعطي بهما دلالة التأكيد والاستمرار ، وهذا التنوّع عزز الدلالة ، وأكسبها عمقاً أكبر .

إن العلم وسيلة من أهم الوسائل لإنقاذ بني البشر ، ولذلك فإن أهل العلم وخاصته ، ما هم إلا مشاعل لإضاءة هذه الحياة ، فأفعالهم تجلب محبة الله – عزّ وجلّ – ، ومحبة خلقه ، وبخاصة حين تكون النوايا خالصة للخالق – تعالى – ، وفي هذا الصدد يقول الشاعر عبد العزيز بن صالح العسكر[1] :

سبعون عاماً قد قضاها في الذي ... هو إرثنا من منقذ الإنسان
هو رائد في العلم ما شطّت به ... دنيا يتوق لها ذوو التيجان
العلم وقف زينت أخباره ... يرجو رضاء الواحد الديان

ففي هذا المقطع نجد تعبيراً عن طبيعة العلم الذي عُني به الشيخ واشتغل عليه ، فهو ليس ضديداً للجهل فحسب ، وإنما منقذ للإنسان ، يرجو به المتعلّم رضا الواحد الديان .. وهو يكسب الإنسان من العزة والكرامة ، ما يجعله فوق ما يشعر به ذوو التيجان .

وقد يرثى الشيخ بأبيات تحوي صفات كثيرة ، إلا أن صفة العلم ، تبقى الصفة المسيطرة ، ويقول عبد الله بن سعاف[2] :

مضيت وقد كانت لدى الناس فاقة ... إليك ولكن أبعدتك المصارع
حبست سواد الشعر في طلب الهدى ... وخليت عنه بعد والفجر طالع
أشحت عن الدنيا ولو شئت أقبلت ... إليك من الدنيا القرى والقطائع

(١) المصدر السابق ، ص ٨٨٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٩١ .

إذا غـاب نـور العلـم في زمـن الأسـى فـلا سـكتت في العـالمين المدامـع

لقد سيطرت صفة طلب العلم على هذا المقطع ، رغم مجاورتها عدداً من الصفات ، ففي البيت الأول إشارة إلى حاجة الناس إلى الشيخ " مضيت وقد كانت لدى الناس فاقة إليك ... " ، وكان التعبير عن هذه الحاجة بالفاقة ، وهي أشد مستويات الحاجة ، ثم في البيت الثاني نجد الإشارة إلى إنفاق زمن الشباب في طلب العلم " حبست سواد الشعر في طلب الهدى " ، والاستمرار على ذلك حتى الموت " وخليت عنه بعد والفجر طالع " ، ثم في البيت الرابع تعبير عن أثر رحيل العالم في الناس " غاب نور العلم ... "، فهو بمثابة غياب النور في زمن ملبّد بالظلمات ، وهذا مسوّغ للبكاء رحيله ، وعلى حال الأمة بعده .

وقد يعمد الشاعر – أحياناً – إلى وضع تقسيم لجهود الشيخ في سبيل العلم ، والتعليم ، وفي ذلك تقول الشاعرة نوال بنت عبد العزيز العيد[1] :

أدار العلـم في الحلقـات يفتـي سـنين العمـر في الفتيـا قـضاها

بـشرح بـل بفقـه بـل بفهـم تـصاغرت الـشروح إذا تلاهـا

سـنبكي النجـم حـين هـوى لأرض نجـوم الليـل قـد يخبـو سناهـا

فالشاعرة نوال العيد قد حاولت في هذا المقطع رسم مشهد لنشاط الشيخ العلـمي فاختارت المكان " أدار العلم في الحلقات " ، والزمن " سنين العمر ... " ، والعلم المتمثّل في الفتوى ، والفقه ، والشروح ، والتلاوة – كما هو واضح في البيتين الأول والثاني ، ثم أغلقت الشاعرة هذا المشهد الوظيفي – كما نرى – بتشبيه الشيخ بالنجم الذي سقط ، تاركاً مكانه لسواد الليل .

وتجدر الإشارة إلى أن المقتطفات الشعرية السابقة التي تعبّر عن صفة الإقبال على العلم ، تتّفق في جملة من الأمور ، من أهمها ما يأتي :

---

(١) المصدر السابق ، ص ٩٨٢ .

١- وصف جدية الشيخ في طلب العلم ، وتعليمه ، والصبر على ذلك .

٢- وصف تنوّعه العلمي ، وإن لم نجد تميزاً فنياً في ذلك .

٣- تشبيهه بالنور ، أو الشمس ، أو النجم ، وفي هذا التشبيه تشبيهٌ ضمني مقابل ، وهو تشبيه موته بالظلمة ، والليل البهيم .

المبحث الثالث :
الأوصاف الجسدية

عُني عدد من الشعراء الذين رثوا الشيخ محمد بن عثيمين ، بعرض أوصافه الجسدية ؛ منطلقين من أنّ الجسديَّ ظلّ للمعنوي ، ومتأثر به أكثر من غيره ، وقد كان وصف البعد الجسدي أحد الأبعاد التي نشط في وصفها الشاعر العربي ، وكان حاضراً في جميع الأغراض الشعرية التي عرفها الأدب العربي .

ويعدّ نحول الجسم واحداً من أهمّ الأبعاد الجسدية التي استدلّ بها الشاعر السعودي على زهد الممدوح أو المرثي في النعيم الدنيوي ، فالنحافة ، وخشونة البشرة ، ونحوهما ، ارتبطت – عادة – بالزهد ، والبعد عن وسائل الراحة والترف ، وعبّرت عن العارض أو الطارئ كما في المرض على سبيل المثال .

لقد رصد الشعراء كثيراً من الجوانب المتعلقة بالشيخ ، سواء ما كان مرتبطاً بحياته العلمية ، أو العملية ، أو ما كان مندرجاً في دائرة الأخلاق والصفات ، أو غيرها ، ومما رصده الشعر لنا ، ما كان من أثر المرض في جسد العثيمين – عليه رحمة الله – ، حيث نظم الشاعر حبيب بن معلا المطيري مرثية في الشيخ ، جاء فيها[1] :

هيجت بالبوح الممضّ مشاعراً ... جفلت لفقد الأوجه العطرات
فنشيجك المحموم لوعة ثاكل ... قد غمّ بالكلمات والآهات
ونحول جسمك إذ دهته كروبه ... يروي احتراق القلب بالنكبات
غاب العثيمين الإمام مودعاً ... تهفو إليه منابر الحلقات
أواه يا شيخاه يا علم الهدى ... يا طاهر الأهواء والنزعات

(١) ابن عثيمين الإمام الزاهد ١٣٤٧هـ – ١٤٢١هـ ، ص ٧٩٤ – ٧٩٥ .

ففي هذا المقطع يصف الشاعر حبيب المطيري أثر المرض في جسد الشيخ ، وقد أحسن الشاعر في ربط هذا الأثر بأثر جدّ الشيخ ، وجهده ، وكدّه ، وتعبه في القراءة والتأليف ، وحلقات الدرس ، وأثر امتلاء قلبه بالمآسي جرّاء توالي النكبات على الأمة الإسلامية ، ولذلك عبّر الشاعر عن هذه الفكرة بصورة واضحة في قصيدة أخرى ، حيث قال[1] :

العثيمين ؟ يا لجسم نحيل ... تعبت في مراده أقدامه
أيها الشيخ يا حبيب المنيبين ... ويا من إلى التُّقى إقدامه
حق فيك البكاء يا صادق الزهـ ... ـد وبالحق للهدى ضرغامه

فقوله في البيت الأول " العثيمين ؟ يا لجسم نحيل " ، فالنحول – هنا – ليس توصيفا لجسد الشيخ فحسب ، وإنما توصيف عن عدم قدرة الشيخ على مجاراة مراده " تعبت في مراده أقدامه " ، فالجسد نحيل ، والمراد طويل وعريض ، وهو مراد أساسه الصدق ، ودافعه همّة عالية ، ولذلك كانت هذه المفارقة سبيلاً إلى وصفه بـ " حبيب المنيبين " ، وبـ " صادق الزهد " .

ويذهب الشاعر مبارك بن عبد الله المحيميد إلى تأكيد سبب هذا النحول ، وهو المداومة على طلب العلم ، وتقديمه في أسلوب سهل ميسر ؛ ليكون في متناول طلابه ، فيقول[2] :

سائلي : عن جسمه الناحل ما ... هدّه ؟ أخبرك عن أسبابه
زاده " الزاد " وقد آثره ... سائغاً للناس في أكوابه

(١) المصدر السابق ، ص ٧٩٦ – ٧٩٧ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٩٤٦ .

فالشاعـــــر – هنا – يؤكد على أن العلم هو غذاء الشيخ ، إذ إن "زاده الزاد " ، وفي هذا إشارة إلى أحد كتب الفقه الحنبلي المشهورة ، وهو " زاد المستقنع " ، ثم هو يشير إلى الجهد الذي يبذله الشيخ في التدريس ، وهو أمر ترك أثره على بنيته الجســدية ، التي أصبحت نحيلة من مكابدة الطلب ، والتعليم .

وللشيب نصيب من الشعر ، فهو وقار ، ودلالة على طول العمر ، وتقادم السنين ، لكنها سنين فنيت في مرضاة الله – عزّ وجلّ – ، وفي هذا يقول الشاعر إبراهيم بن محمد المشاري[1] :

مـــا زلـــت أشـــعر كـــل خطبـــة جمعـــة	أنّـــــي إذا رُفـــــع الأذان أراكـــــا
لـــو كـــان يُرجـــى كـــي تعـــود بكاؤنـــا	بكـــت الـــسماء وزجّـــت الأفلاكـــا
قـــد شـــاب منـــك العارضـــان علـــى التقـــى	وحفـــت علـــى درب الهـــدى قدماكـــا
أفنيـــت دهـــرك عالمـــاً ومعلمـــاً	تـــالله مـــا فنيـــت بـــذاك خطاكـــا

فالشاعر ركّز – في البيت الثالث – على الشيب بوصفه دليلاً على طول الزمن ، بدلالة "على" أي شاب عارضاك في التقوى ، فالتقوى – هنا – أصلٌ في تكوين المرثي ، وليست طارئة في آخرة الحياة عند إحساسه المرء بدنو أجله ، كما أنها ليست ردّ فعل على موقف معيّن .

ويجيء الشطر الثاني ليدعم الأول ، فيشير إلى آثار المشي الطويل على قدميه ، والمشي في هذا السياق ذو دلالة معنوية ، تتّسع لتعبّر عن معانٍ عظيمة (العبادة ، والتقوى ، والقراءة ، والتأليف ، والتعلُّم ، والتعليم) .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٧٨٣ .

المبحث الرابع :
الحديث عن الزهد

سنتناول في هذا المبحث جملة الأبيات التي أشارت إلى زهد الشيخ محمد العثيمين – يرحمه الله – ، ولكنها لم تربط هذا الزهد بالانصراف عن الدنيا – كما في المبحث الأول – ، ولا بالإقبال على العلم – كما في المبحث الثاني – ، ولم تقرن بينه وبين أوصافه الجسدية – كما في المبحث الثالث – ، وإنما اكتفت بالإشارة إلى هذه الصفة ، وإن وجدت فإنها لا تملك أن تستقلّ بتكوين معنى خاص كما وجدنا في المباحث السابقة .

ومن النماذج الشعرية التي أشارت إلى الزهد عند الشيخ قول إبراهيم بن عبد الرحمن المبارك[1] :

محمد الصالح الميمون قد فجعت ... بموته أمتي فالهم يضنيها
مات العثيمين شيخ الزهد في زمن ... تبرجت فيه دنيانا لباغيها
إن العثيمين مني حلّ منزلة ... من الفؤاد فدمع العين يُبديها

فالشاعر يعبّر عن صفة الزهد عند الشيخ بتركيب إضافي ، خصص به صفة المشيخة بالزهد ؛ ليكون الزهد جزءاً مندرجاً تحت اسم الشيخ ، وليس مظلة له ، ولأن الأمر كذلك فقد غابت ملامح الزهد المادية والمعنوية التي كنا نجدها عند الشعراء السابقين أو في مباحث الدراسة السابقة .

ويأتي الشاعر أحمد بن حسن الصابطي ، ليؤكد أن الزهد قد أقام في رحال الشيخ ، فهو معه لا يفارقه[2] :

والزهد ألقى في فنائك رحله ... وبقيت مقياساً لكل جواد
يا حاملي نعش الحبيب تمهلوا ... فلقد حملتم سيد الزهاد

---

(١) المصدر السابق ، ص ٧٧٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٨٥ – ٧٨٦ .

فنحن نجد – هنا – صيغة لغوية أخرى للتركيب ألا وهو " سيد الزهاد " ، وقد عبّر الشاعر عن انضواء الزهد تحت لواء الشيخ بقوله "والزهد ألقى في فنائك رحله" .

ومن الشعراء من جمع في عرض صفات الشيخ بين التقوى والزهد ، كما في قول الشاعر سعيد بن رداد المالكي[1] :

سلام على قبر بأم القرى به إمام التقى والزهد والفقه هاجع
سلام يدوم الدهر ما دامت الدنا وما سُبّح المولى وما لاح لامع

فهذا المقطع مشابه لسابقيه ، فبالإضافة إلى " شيخ الزهد " ، و " سيد الزهاد " ، فإننا نجد – هنا – تغييراً في صياغة التركيب إلى " إمام التقى والزهد " ، وهو من عطف الجزء على الكلّ لأهميته .

ولا يختلف الشاعر محمد بن سعد العجلان ، عما سبق إلا في الصيغة التعبيرية ، حيث يقول[2] :

خبر أقضّ مضاجع العباد قالوا ترجّل زاهد الزهاد
قالوا أصيب الدين وانتزع الردى شيخ التقاة وأمة الإرشاد
الأبيض الوجه النقي إذا بدت سود الوجوه بموقف الأشهاد

فالصياغة قد تغيرت إلى " زاهد الزهاد " ، وفيه هذه الصيغة تعبير بالمعنى الأبعد للزهد ، حيث يتجاوز الشيخ صفة الزاهد ، أو شيخ الزهد ، إلى صفة أبعد ، هي زاهد الزهاد ، أي الذي بلغ في الزهد ما لم يبلغه منه الزهاد أنفسهم .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٨٣٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩٥٨ .

أما الشاعر أحمد بن صالح الصالح ، فإنه يسند إلى الشيخ مجموعة من الصفات ، حيث يقول[1] :

حبيبنـــا هـــذه الأحبـــاب قـــد عرفـــت ... فيـــك الأمـــين النقـــي الزاهـــد الحذقـــا
ودعـــتهم يـــا حبيبـــاً كـــان يؤنـــسهم ... وكـــان بـــراً حفيّـــاً صـــيباً غدقـــا
حبيبنـــا طبـــت في أم القـــرى جـــدثاً ... وطـــاب ذكـــرك في كـــل الـــدنا عبقـــا

إن الشـــاعر قد أسند إلى الشيخ هنا عدداً من الصفات من مثل الأمانة ، والزهد ، والحذق ، وغيرهـــا ، وجعلها صفات عامة ، يعرفها الجميع من حاله ، وذلك بقوله " حبيبنا هذه الأحباب قد عرفت " ، وربمـــا قرأنا في هذا المعنى تغييب الشاعر لزاوية الرؤية الخاصة به ؛ إيماناً منه بأن الجميع في نظرتهم إلى الشيخ ينطلقون من رؤية واحدة ، وينتهون إلى صورة واحدة ، وفي هـــذا نقل لصفة الزهد من دائرة المعطى الأدبي الذي ينـــزع إلى المبالغة إلى المعطى الواقعي ، حتى كأنهـــا إحدى الحقائق التي لا تقبل الاختلاف .

---

[1] المصدر السابق ، ص ٧٨٨ .

الخاتمـــة

بانتهاء مباحث هذه الدراسة ، التي تناولت صور الزهد في رثاء الشيخ محمد العثيمين ، نكون قد توصلنا إلى عدد من النتائج الرئيسة ، وإن كنا قد أشرنا إلى عدد من النتائج الجزئية داخل المباحث ، ومن أهم تلك النتائج الرئيسة ما يأتي :

أولاً : تعدّدت صور التعبير عن الزهد في حياة الشيخ محمد العثيمين – رحمه الله – ، فعبّر بعض الشعراء عنها بالانصراف عن الدنيا وملذاتها ، وبعضهم بالإقبال على العلم والانقطاع إليه ، وبعضهم بتجلية الأبعاد الجسدية الدالة على الزهد .

ثانياً – استخدم الشعراء عدداً من الأساليب الأدبية في بناء هذه الصور التعبيرية ، ومن أهمها : التكرار ، والتأكيد ، واستخدام الأفعال الدالة على الثبوت ، والأفعال الدالة على التجدد والاستمرار ، وما إلى ذلك .

ثالثاً – يكاد يتفق الشعراء على أن الزهد في حياة الشيخ مرتبط بالتقوى ، ومتصل بقيم الدين ، فلا هو بالغالي الذي يبلغ درجة التنطع ، ولا هو بالمتردد أو المتساهل الذي يضيق أمام إلحاح الدنيا وفتنتها .

ثبت المصادر والمراجع

- ١٤ عاماً مع سماحة العلامة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين ، عبد الكريم بن صالح المقرن ، دار طويق للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .
- ابن عثيمين الإمام الزاهد ١٣٤٧هـ - ١٤٢١هـ ، جمع وتأليف د. ناصر بن مسفر الزهراني ، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع ، الدمام ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .
- تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة السادسة عشرة ، ١٤١٦هـ - ٢٠٠٤م .
- الجامع لحياة العلامة محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله - العلمية والعملية وما قيل فيه من المراثي ، وليد بن أحمد الحسين ، مجلة الحكمة ، ليدز ، بريطانيا ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م .
- الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية ، د. بكري شيخ أمين ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، الطبعة السابعة ، ١٩٩٦م .
- صفحة مشرقة من حياة الإمام محمد بن صالح العثيمين ، حمود بن عبد الله المطر ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .
- الضياء اللامع من الخطب الجوامع ، محمد بن صالح بن عثيمين ، مكتبة السوادي للتوزيع ، جدة ، الطبعة التاسعة ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م .
- النزعة الإسلامية في الشعر السعودي المعاصر ، د. حسن بن فهد الهويمل ، المهرجان الوطني للتراث والثقافة ، الرياض ، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .